أزمة الانتماء في شعر عنتـــرة بـــن شـــــداد

د. جبار عباس اللامي
كلية التربية / جامعة ميسان

المقدمة

ما يزال الشعر العربي قبل الإسلام يستوقف الدارسين ويغريهم بالبحث والتأمل لما حمله من قيم فنية، وتجارب إنسانية رائعة.

ومن هنا جاء بحثنا لتسليط الضوء على واحدة من هذه التجارب المتميزة التي جسدها الشاعر عنترة بن شداد مؤكداً حضوره ليس على الصعيد الشعري فحسب وإنما على الصعيد الإنساني أيضاً.

ويرجع الاهتمام بعنترة لكونه من القلة التي جمعت بين الفروسية والشاعرية ومكارم الأخلاق وبكل ما أوتي من مواهب وقوى ليتخلص مما لحقه من عار العبودية والازدراء وانى له وهو - ابن أمة سوداء - أن يواجه قيماً متجذرة التزم بها العرب وعدّوها من الثوابت، وهو يعلم علم اليقين أنها مفاهيم سلبية بغيضة أحالته أن يعيش وضعاً مأساوياً إذ حرم من حريته ولم يحظ باعتراف أبيه.

وهكذا عاش عنترة شطراً من حياته مهزوماً يعاني من أزمة الانتماء التي غدت تقض مضجعه بل كادت تنهي وجوده كعربي وتلغي كلّ محاسنه وتبيد قواه لولا صموده واستثمار ملكاته الخاصة ومن هنا جاءت محاولتي لرصد هذه الظاهرة معتمداً على ما تومئ إليه النصوص الشعرية، ودراسة الظروف التاريخية والنفسية التي أدت إلى بروزها وانعكاسها في نتاجه الشعري مستفيداً من آراء النقاد القدامى وملاحظاتهم ومن جهود الباحثين المحدثين.

وقد توزع البحث على المحاور الآتية:

- المقدمة.
- مدخل.. شاعرية عنترة.
- حبه لعبلة ورفضه للواقع.
- سلوكه البطولي والأخلاقي.
- الخاتمة.

وفي الختام أسأل الباري عز وجل التوفيق والسداد خدمة لتراث أمتنا.

ISSN-1994-697X

المدخل:
شاعرية عنترة:

عنترة بن شداد [١] شاعر جاهلي، متوهج الشاعرية، ينتهي نسبه إلى مضر، وكان أبوه من أشراف قبيلة عبس، أما أمه فكانت أمه حبشية سوداء تدعى (زبيبة)، ورث عنها السواد، واكد عنترة نسبتها إلى آل حام كما جاء في قوله:[٢]

وَأنا المجربُ في المواطنِ كلّها

من آلِ عَبْسٍ منصبي وفعَالي

مِنْهُمْ أبي حَقاً، فَهُمْ لِي وَالِدٌ

وَالأمُّ مِنْ حَامٍ، فَهُمْ أخْوالي

وسواد لونه جعله في عداد أغربة العرب في الجاهلية، وكانوا ثلاثة: عنترة بن شداد وأمه زبيبة، وخفاف بن عمير الشريدي وأمه ندبة، والسليك بن عمير السعدي وأمه السلكة، واليهن كانوا ينتسبون[٣]

ويعد عنترة بن شداد من الشعراء البارزين في العصر الجاهلي، فقد صنفه ابن سلام الجمحي في الطبقة السادسة من طبقاته فذكره مع عمرو بن كلثوم والحارث بن حلزة وسويد بن أبي كاهل [٤] وهو صاحب المعلقة المشهورة التي مطلعها [٥]

هَلْ غَادَرَ الشّعراءُ مِنْ مُتَرَدَّمِ؟

أمْ هَلْ عَرَفتَ الدّارَ بَعدَ تَوَهّمِ؟

ومعلقته هي ـ بلا شك ـ إحدى روائعه الشعرية الحافلة باسرار فنه وشاعريته، وبها استحق مكانة متميزة بين أصحاب المعلقات في عصر كثر فيه الشعراء الكبار.

ونالت هذه المعلقة استحسان العلماء العرب القدامى، وإعجابهم حتى أنهم جعلوها من أجود نصوصه الشعرية، وكانوا يسمونها (المذهبة) كما ذكر ذلك ابن قتيبة [٦]

---

[1] ـ انظر أخباره كاملة في: الأغاني: لآبي فرج الأصفهاني:٣٨٦/٨ وما بعدها، والشعر والشعراء: لابن قتيبة: ٢٥٠/١، وطبقات فحول الشعراء: لابن سلام الجمحي: ١٥٢/١، وجمهرة أشعار العرب: لأبي زيد القرشي:٤٨١/٢ وما بعدها، وشرح القصائد السبع الطوال الجاهليات . لابي بكر محمد بن القاسم الأنباري: ٢٩٣ وما بعدها

[2] – ديوانه: ٣٣٦، وانظر ذلك في الشعر والشعراء: ٢٥٤/١

[3] – انظر الشعر والشعراء: ٢٥١/١، والاغاني: ٣٨٨/٨

[4] – طبقات فحول الشعراء: لابن سلام الجمحي: ١٥٢/١

[5] – انظر معلقته في شرح المعلقات السبع الطوال الجاهليات: ٢٩٤ وما بعدها وانظرها في ديوانه: ١٨٢ وما بعدها.

[6] – انظر الشعر والشعراء: ٢٥٢/١.

ISSN-1994-697X

واشار ابن سلام الجمحي إليها وقال: (وله شعر كثير إلاّ أن هذه نادرة فألحقوها مع أصحاب الواحدة[٧].

وصنفه صاحب الجمهرة في الطبقة الثالثة من شعراء الجاهلية بعد أن اسقطه من أصحاب المعلقات، وعده من أصحاب المجمهرات التي تلي السموط مباشرة، ووضع قصيدته مع قصائد عبيد بن الأبرص وعدي بن زيد العبادي وبشر بن أبي خازم الأسدي وأمية بن أبي الصلت وخراش بن زهير والنمر بن تولب [٨]

ومن المعلوم أن إسقاط عنترة بن شداد من بين أصحاب المعلقات أو السموط لا يعني التقليل من مكانته وشاعريته بدليل قول صاحب الجمهرة نفسه: (وقد أدركنا أكثر أهل العلم يقولون: إن بعدهن (أي بعد السموط / المعلقات) سبعاً ما هن بدونهن: ولو كنت ملحقاً بهن سبعاً لألحقتهن أي المجمهرات [٩] مؤكداً ذلك من خلال إثباته لقول المفضل في شعراء هذه الطبقة: هؤلاء فحول شعراء أهل نجد الذين ذمّوا ومدحوا وذهبوا بالشعر كلَّ مذهب)[١٠]

ومما يؤكد شاعرية عنترة ما ذكره صاحب العمدة في حديث حُكي عن الأصمعي عن ابي طريفة وقال فيه: (كفاك من الشعراء أربعة، زهير إذا رغب، والنابغة إذا رهب، والأعشى إذا طرب، وعنترة إذا كلب) [١١]

ومما لاشك فيه أن هذا النص يشير إلى مكانة هؤلاء الشعراء الفنية على الرغم من تلك الاشتراطات، ويبدو لنا عنترة شاعراً متميزاً عن غيره في حالة الغضب بخاصة.

وثمة إشارات أخرى وردت في كتب التراث تشير إلى براعة عنترة وشاعريته كالذي أورده الأصفهاني عن ابن عائشة أنه قال: أُنشدَ النبي (صلى الله عليه وآله وسلم) قول عنترة:

وَلَقَدْ أَبِيتُ على الطّوَى وأَظَلّهُ

حتَّى أَنالَ بهِ كَريمَ المَأْكَلِ

فقال (صلى الله عليه وآله وسلم): ما وصف لي أعرابيٌّ قط فأحببتُ أن أراه إلا عنترة [١٢]. ويُحكى أن هارون الرشيد وفي حضور الأصمعي ذكر قول عنترة:

خَلا الذّبابُ بها، فَلَيسَ ببارِحٍ،

غَرِداً كَفعلِ الشّارِبِ المُتَرَنّمِ

هَزِجاً يَحُكُّ ذِراعَهُ بذِراعِهِ،

قَدْحَ المُكِبِّ على الزّنَادِ الأجْذَمِ

7- طبقات فحول الشعراء: ١٥٢/١.

8- جمهرة اشعار العرب:٤٦٥/٢ وما بعدها.

9- المصدر نفسه: ١٣١/١ وما بعدها.

10- المصدر نفسه: ١٣٢/١.

11- العمدة: لابن رشيق القيرواني:٧٣/١ وانظر: جمهرة اشعار العرب: ٩٤/١

12- الأغاني: ٣٩٠/٨، وانظر الأبيات في ديوانه: ٢٤٩.

ISSN-1994-697X

ثم قال: يا أصمعي: هذا من التشبيهات العقم التي لا تنتج [١٣] ـ واستحسن بعض العلماء العرب أبياتاً كثيرة من شعر عنترة مؤكدين إجادته وبراعته وريادته فيها[١٤] ، ومما سبق إليه ولم ينازع فيه على حد قول ابن قتيبة قوله: [١٥]

إني امْرُؤٌ منْ خَيْرِ عَبْسٍ مَنْصِباً

شَطْرِى وأَحْمِى سائِرِي بالمُنْصُل

وإِذَا الكَتِيبَةُ أَحْجَمَتْ وتلاحَظَتْ

أُلْفِيتُ خَيْراً من مُعَمٍّ مُخْوِلِ

ومن خلال هذا كله يمكن لنا أن نقول أن هذه الأقوال تؤكد شاعرية عنترة، وتشير إلى مكانته الأدبية بوصفه شاعراً مبدعاً امتلك أسلوباً متميزاً اتسم بالجدة والأصالة وجمال الصورة، وحظي باهتمام النقاد القدامى الذين أكدوا ذلك بصورة غير قابلة للشك.

ويرجع الاهتمام بعنترة أيضاً لأنه من القلة التي جمعت بين الفروسية والشاعرية ومكارم الأخلاق حتى غدا فيما بعد بطلاً اسطورياً نسجت حوله واحدة من أهم السير الشعبية العربية، وقد اتخذ العرب من أخباره نواة للملحمة المعروفة باسمه والتي عدها الدكتور / شوقي ضيف الياذة العرب [١٦].

حبه لعبلة ورفضه للواقع:

من المعروف أن عنترة بن شداد صاحب قضية إنسانية آمن بها، ودافع عنها حتى صار شاعراً ذا خصوصية، وخصوصية هذه التجربة متأتية ـ فيما أرى ـ من موقف عنترة الرافض لبعض المفاهيم السلبية الضيقة التي كانت سائدة آنذاك، والتي التزمت بها القبيلة وأحالته هو ـ وأبناء جنسه ـ إلى عالم العبيد بسبب سواد لونه، وضعف انتمائه النسبي من جهة الأم لكونها أمة حبشية سوداء، وكفاحه من أجل تغيير هذه المفاهيم السلبية بمفاهيم إيجابية جديدة يتم فيها تقويم الإنسان على أساس فعله وعطائه ومكارم أخلاقه لا على أساس جنسه أو لونه أو انتمائه، وهذا ما لا يتوافق مع جوهر الإنسان وكرامته إلا أن دعوة عنترة التي كانت تقوم على العدل والمساواة بين الناس سرعان ما اصطدمت بواقع الحياة القبلية التي غدت ضرباً من الوهم بفعل النظام القبلي المتحكم في رقاب الناس والذي صنفهم إلى طبقات ثلاث: الصرحاء والموالي والعبيد وصار من الثوابت التي لا يمكن تجاوزها.

ونتيجة لهذا الوضع المأساوي حُرِمَ عنترة من حريته، وحُرِمَ من اعتراف أبيه الذي رفض في بداية الأمر الاعتراف به، وإلحاقه بنسبه(عبس) جرياً على عادة العرب في الجاهلية التي كانت تستعبد أولاد الإماء، ولا تعترف بهم إلا إذا ظهرت عليهم النجابة[١٧] فعاش عنترة مأزوماً يعاني من أزمة الانتماء التي تمثلت في رفض المجتمع له بسبب سواد لونه، وتواضع نسبه من جهة الأم، وبسبب مقاييس العبودية

13 – اشعار الشعراء الستة الجاهليين: للاعلم الشنتمري: ١٨٦/١، وانظر الأبيات في ديوانه: ١٩٧.

14 – انظر ذلك في الشعر والشعراء: ٢٥٣/١.

15 – المصدر نفسه: ٢٥٣/١ وانظر الأبيات في ديوانه: ٢٤٨ وما بعدها.

16 – انظر العصر الجاهلي: د. شوقي طيف: ٣٧٠ وما بعدها.

17 – انظر الأغاني: ٣٨٦/٨.

ISSN-1994-697X

في ذلك العصر (عصر الجاهلية) فقد عاش حياته الأولى عبداً ذليلاً يرعى الجمال، محتقراً في عيون الناس، وفي عيون أقربائه.

ومما يؤكد ذلك ما رواه أبو عمرو الشيباني أن عبساً غزت بني تميم، وعليهم قيس بن زهير فانهزمت بنو عبس وطلبتهم بنو تميم، فوقف لهم عنترة ولحقتهم كبكبة من الخيل فحامى عنترة عن الناس، فلم يصب مدبر، وكان قيس بن زهير سيدهم فساءه ما صنع عنترة يومئذ فقال: والله ما حمى الناس الا ابن السوداء)[١٨]

ولم يتوان عنترة من التصريح بعبوديته أيضاً كما ورد في قوله:[١٩]

المالُ مالُكُم والعَبْدُ عُبْدُكُمُ

فَهَلْ عَذابُكَ عني اليومَ مَصْروفُ

وعبر عنترة بن شداد عن قسوة القبيلة في تعاملها معه، معلناً عن أزمته كفرد مخذول خذله قومه الذين لم يترددوا من نكران نسبته لعبس ولاسيما فرسان عبس كما وجدنا قبل قليل تصرفات سيدهم وفارسهم قيس بن زهير.

ومما زاد من ألم عنترة ومعاناته حبه الميئوس منه لابنة عمه (عبلة ابنة مالك) التي أحبها منذ نعومة أظفاره، ولاقى من أجلها أصنافاً من الظلم والمرارة والعذاب لان حبه هذا اسهم في تكريس إحساسه بالعبودية وبسواد لونه ولاسيما عندما أراد الزواج منها فرفض عمه تزويج ابنته (عبلة) بعبد اسود.

وتحمل عنترة الكثير من الألم والمعاناة من أجل هذا الحب الذي لم يجن منه ـ في بداية الأمر ـ سوى الألم والحسرة والعذاب والحرمان والازدراء ـ ويبدو ذلك واضحاً في عتابه لعبلة لعدم تقديرها إياه، محاولاً التقرب منها من خلال دعوته لها في أن تنظر إلى أفعاله لا أن تنظر إلى شكله يقول عنترة: [٢٠]

لا تَصْرِميني يا عُبَيْلُ وراجعي

فِيَّ البَصيرَةَ نَظْرَةَ المُتَأَمِّلِ

فَلَرُبَّ أَمْلَحَ مِنكِ دَلاّ ً فاعْلَمي

وأَقَرَّ في الدُّنيا لعينِ المُجْتَلي

وَصَلَتْ حِبالي بالذي أنا أَهْلُهُ

مِنْ وُدِّها وأنا رَخِيُّ المِطْوَلِ

وغالباً ما كان يلجأ عنترة إلى استعراض معاركه أمام محبوبته عبلة لتتعرف على افعاله في سوح المعارك فيبدو منفرداً في بطولته كما يتضح ذلك في قوله:[٢١]

---

[18]– لباب الآداب للثعالبي: ٢١٦.

[19]– ديوانه: ٢٧٠.

[20]– ديوانه: ٢٥٤ وما بعدها.

[21]– نفسه: ٣٣٥.

ISSN-1994-697X

هَلاّ سألَتِ أبْنَةَ العَبْسِي ما حَسَبي

عِنْدَ الطّعانِ إذاَ ما احَمَّرت الحَدَقُ

وَجَالَتِ الخَيلُ بِالأبْطالِ عابِسةً

شُعْثَ النّواصِي عَلَيْها البِيضُ تأتلقُ

وعمد عنترة إلى تصوير هذه التجربة القاسية التي طبعت شعره بطابع الألم والحرمان معلناً عن تمسكه بمحبوبته (عبلة)، والتضحية من أجلها حتى وان تحمل المزيد من العنت والمشقة والظلم إكراماً لها، والفوز برضاها الذي سيعزز من وجوده، واثبات ذاته في مجتمع كالمجتمع الجاهلي.

وعلى الرغم من كل هذه المعاناة التي واجهت عنترة من جراء حبه لعبلة يبدو لنا إصراره على التمسك بابنة عمه، وحرصه كلياً على الفوز بمودتها ورضاها من دون سواها كما نلاحظ ذلك في قوله: (٢٢)

وَلَئِنْ سَألَتَ بِذاكَ عَبْلَةَ خَبَّرتْ

أنْ لا أرِيد مِنَ النّساءِ سِواهَا

ومن خلال هذا كله تبرز لنا أزمة الانتماء عند عنترة بشكل سافر متمثلة بعقدة اللون التي تركت أثراً بارزاً على نفسية الشاعر ؛ إذ غالباً ما كان اللون الأسود يذكره بعبوديته لكونه مظهراً من مظاهر هذه العبودية، وظلت هذه العقدة تلازمه طيلة حياته في حله وترحاله حتى انعكست على نتاجه الشعري، وأصبحت إحدى ظواهره البارزة فنراه في بعض نماذجه الشعرية يعترف بعبوديته وسواد لونه كما ورد ذلك في قوله:(٢٣)

أنا الهجين عنترهْ كُلُّ امرئٍ يحمي حِرَهْ

وقوله: (٢٤)

إنِّي أنا عنترةُ الهَجِينْ فَجَّ الأنانِ قَدْ علا الأنِينْ

تُحْصَدُ فِيهِ الكَفَّ وَالوُتِينْ

ومن المفيد الإشارة إلى أن اعتراف عنترة بسواد لونه وعبوديته لا يعني قبوله بذلك، وإنما أراد أن يعكس الجانب السلبي من القيم التي التزمت بها القبيلة في تعاملها مع الملونين، وتقويمهم على أساس انتمائهم الأسري لا على أساس قيمهم ومواقفهم وسلوكهم الاجتماعي، وهذا ما يتعارض مع فكر الشاعر وحلمه ورؤيته للإنسان الذي ينبغي أن يقوم على أساس إنسانيته من دون الالتفات إلى مظهره الخارجي.

22- ديوانه: ٣٠٨.

23- نفسه: ٣٢٩.

24- نفسه: ٣٢٦.

ISSN-1994-697X

وبسبب هذا اللون تعرض عنترة إلى ازدراء المجتمع له واحتقاره، وكثيراً ما عُيِرَ عنترة بسواده، وبأمه الحبشية السوداء كما يتبين لنا ذلك في إحدى منازلاته القتالية فعندما استطاع الحصين بن ضمضم المري طعن عنترة في وجهه وقال مفاخراً[٢٥]

لَمآ رَأيتُ العَبْدَ وَسْطَ ُصفوفنا

مُتَكَرَّراً أكْرَهْت فيهِ الأسمرا

فَرَدَدْتُ عَنْ جَمْعِ السُراةِ سَوادَهُ

وَرَدَدْتُهُ عن صَفَّ مُرّةَ مُدْبِرا

لَمآ رَأى فُرسَان مُرّ ةَ والقَنَا

لم يَسْتَطعْ لِقِنَاهُمُ أنْ يَصبِرا

تَركَتْ بوَجْهِ العَبْدِ طولَ حياتِه

أرماح مُرّةَ والأسِنّةُ مَنْظَرا

وكذلك ما نستشفه من قول عنتره في رده على آخر: [٢٦]

فأنْ تكُ أمي غرابيةً من أبناءِ حامٍ بها عِبْتَنِي

ومما ساعد على بروز ازمة الانتماء عند عنترة ظهورها في تربة صالحة تمثلت في البيئة الجاهلية التي غلب عليها الطابع القبلي المتعصب للأرومة، وفي مجتمع تحكمه العصبية القبلية أكثر مما يحكمه أي شئ أخر.

ووجد عنترة نفسه محاصراً بين خيارين لا ثالث لهما: إما أن يقبل بهذا الواقع المؤلم فيعيش ذليلاً مقهوراً، وإما ان يرفض هذا الواقع، ويسعى إلى تغييره كي يعيش حراً موفور الكرامة.

وأدرك عنترة ألاّ خلاص من هذا الواقع إلا برفضه، ورفض القيم السلبية التي تحاول أن تكبل إرادته، وتسلب حريته، وآمن بأن الهروب منه والإستسلام له سيجعله يعيش ـ طوال حياته ـ عبداً ذليلاً كما عاشها عشرات من أبناء جنسه من الذين استسلموا لهذا الواقع الردئ.

سلوكه البطولي والأخلاقي:

ما كان عنترة ليجهل قدر نفسه، وينام على الضيم والعبودية، وما كان أمامه إلا رفض هذا الواقع والكفاح من أجل إثبات ذاته ووجوده مسخراً كل إمكانياته وقدراته في سبيل انتزاع حريته ساعده في ذلك إحساسه بنوع من التفوق حتى على السادة الأحرار، وبنوع من الاعتزاز بالنفس والتوق إلى العلا والمعالي.

[25]– نفسه: ٣٢٧.

[26]– ديوانه: ٣٣٩.

وهذا ما جعله رافضاً الخوف من الموت مندفعاً من أجل تحقيق ذاته كما يتضح ذلك في كثير من نماذجه الشعرية مثل قوله:[٢٧]

لا تَعْجَلِي، أشْدُدْ حِزامَ الأبْجَرِ إنّي إذاَ الموتُ دَنَا لم أضْجَرِ

وَلَمْ أمَنَّ النّفس بِالتّأخرِ

وقوله: [٢٨]

اليَوْمَ تَبْلُو كُلُّ أنْثَى بَعْلَها فَاليَوْمَ يحمِيها وَيَحْمي رَحْلَها

وإنّما تَلْقى النّفوسُ سُبْلَها إنَّ المنايا مُدْرِكاتٌ أهْلَها

وَخَيْر آجالِ النّفوسِ قَتْلَها

ومما لاشك فيه أن هذه الأبيات تومئ إلى رغبة عنترة وإرادته في أن يعيش عزيزاً موفور الكرامة، مدركاً أن الحياة التي يطمح إليها لا يمكن أن تتحقق إلا بالبطولة والفروسية، مؤمناً بان لا عز بلا بطولة، ولا بطولة بلا قوة فاعتمد عنترة على قواه في تحقيق وجوده في مجتمع ظلمه، وظلم أبناء جنسه حتى أصبحت الفروسية وسيلته في تحقيق مكانته في المجتمع فصدام الخيل والمعارك هي التي تجعل قومه يخرجونه من دائرة العبودية والسواد (ابن زبيبة) ليدخل في دائرة الحريةَ والانتساب إلى الأحرار (ابن الأطايب) كما يبدو ذلك واضحاً في قوله: [٢٩]

يُنادُونني في السِّلم يا بْنَ زَبيبة

وَعندَ صِدَامِ الخيلِ يا ابنَ الأطايبِ

واستطاع عنترة بن شداد استنهاض قيم البطولة بكل قوة لمواجهة الواقع، ومواجهة الأحباط والشعور بالنقص أو الاستلاب الذي يمليه المجتمع عليه حتى ظفر باسترداد حريته بحد سيفه، واعتراف أبيه لفروسيته بعد أن أصبح حامي حمى قومه فقد ذكر ابن قتيبة أن أباه قد أدعاه بعد الكبر وكان سبب إدعاء أبي عنترة أياه أن بعض احياء العرب، أغاروا على قوم من بني عبس فأصابوا منهم، فتبعهم العبسيون فلحقوهم، فقاتلوهم عما معهم، وعنترة معهم، فقال له أبوه: كر يا عنترة. فقال عنترة: العبد لا يحسن الكر، إنما يحسن الحلاب والصر فقال: كر وأنت حر فكر وهو يقول:

كل امرئٍ يحمي حِره أسودَه وأحمَرَهْ

والواردات مِشْفَرهْ

---

[27]- نفسه: ٣٣٤.

[28]- ديوانه: ٣٢٩.

[29]- انظر الشعر الجاهلي . بطرس البستاني: ٧٧.

ISSN-1994-697X

وقاتل يومئذ فابلى واستنقذ ما كان بأيدي عدوهم من الغنيمة، فادعاه أبوه بعد ذلك، والحق به نسبه (٣٠)

واستطاع عنترة بفروسيته هذه أن يثبت وجوده ومكانته في المجتمع، وأن ينتزع اعتراف مجتمعه بجدارته، وبهذه الوسيلة حرر نفسه من هذه العبوديه حتى تحولت عبوديته إلى مصدر فخر واعتزاز كما ذكر ذلك ابن قتيبة عندما قال (أن عنترة كان يفخر بأخواله السودان)[٣١]

ومما يؤكد ذلك ايضاً قوله: [٣٢]

فَإِنْ تَكُ أمَّي غُرابِيَّةَ

مِن ابْناءِ حامٍ بها عِبْتُنِي

فإني لَطيفٌ بِبِيضِ الظبا

وسُمْرِ العوالي إذا جِئْتَنِي

ولولا فرارُك يَوْمَ الوَغَى

لَقُدْتُكَ في الَحرْبِ أوقُدْتَنِي

وقوله [٣٣]

أكُرُّ عليهْم مهْري كليماً

قلائِدُهُ سبائِبُ كالقِرامِ

.....

.....

يُقَدَّمُهُ فتىً من خير عَبْسٍ

أبوهُ وأمُّهُ مِنْ آلِ حامِ

وعمد عنترة إلى التغني بشجاعته، مصوراً نفسه فارساً شجاعاً لا يخاف الفرسان الآخرين ولا يهاب الموت لذا نراه يتصدى للفارس الذي خافه الجميع قائلاً: [٣٤]

وَمُدَجّجٍ كَرِهَ الكُماةُ نِزالَهُ

30- انظر الشعر والشعراء: ١/٢٥٠.

31- المصدر نفسه: ١/٢٥٤.

32- ديوانه: ٣٣٩ وما بعدها.

33- نفسه: ٢٤٤ وما بعدها.

34- نفسه: ٢٠٩ وما بعدها.

ISSN-1994-697X

لا ممعِنٍ هَرَباً ولا مُسْتَسْلِم

جَادَتْ يدايَ لَهُ بِعاجِلِ طَعْنَةٍ

بِمُثَقّفٍ صَدْقِ الكعوبِ مقوَّمِ

فَشَكَكْت بالرَّمْحِ الأصمِ ثِيابَهُ

ليْسَ الكَرِيمُ عَلى القَنْا بِمُحَرَّمِ

وَتَرَكْتُهُ جَزَرَ السَّباعِ يَنُشْنَهُ

ما بَيْنَ قُلّة رَأسهِ والمعصم

ويصور عنترة قدرته على الفتك بالآخرين والقضاء عليهم، وقدرته على حماية النساء عندما يطلب من عبلة أن تسأل عن افعاله أن كانت غير عارفة بها فنراه يقول:[٣٥]

وَحليلِ غَانِيَةٍ تَرَكْتُ مُجَدَّلاً

تمكُو فريصَتهُ كَشِدْقِ الأعْلَمِ

ويقول: [٣٦]

وَخيْلٍ قَدْ زَحَفْتُ لها بِخَيْلِ

عليها الأسْدُ تُهْتصَرُ اهْتِصارا

ولا شك أن بطولة عنترة وفروسيته هي التي أسهمت في تعزيز وجوده وإثبات ذاته، وهي التي جعلته فارس بني عبس الملتزم بقضاياها على الرغم من تقاليدها الجائرة التي حاولت أن تجعل منه ومن سواه أُناساً لا قيمة لهم في المجتمع، ومع ذلك لم يخرج عنترة على قبيلته عبس خروجاً كلياً لأنه أدرك ألاّ سبيل لتحقيق ما يطمح إليه إلا عن طريق الانضواء تحت خيمتها، لذلك كان عنترة يقابل إساءات قومه، وظلمهم له بالإحسان إليهم، فنراه مندفعاً في مشاركة أبناء قومه في حروبهم، متفانياً في الدفاع عنهم على الرغم من عدم إيمانه بتلك الحروب، إذ لم تكن الحرب ـ عنده ـ غاية للفتك والبطش بالآخرين، وإنما كانت وسيلة من الوسائل التي اعتمدها لانتزاع إعجاب أبناء قبيلته (عبس)، وتوكيد انتمائه لهم بعد أن عرف الطريقة، وأدرك الأسلوب الأمثل في استخدامها لتحقيق ما يطمح إليه كما يتضح ذلك في قوله: [٣٧]

إنْ تَكُ حَربُكُمْ أمْسَتْ عَواناً

فإنِّي لَمْ أكُنْ مِمَّنْ جَنَاهَا

35- ديوانه: ٢٠٧.

36- نفسه: ٢٣٩ وانظر كذلك: ٢٤٥، ٢٧٥.

37- نفسه: ٢٨٩.

ولكنْ وُلْدَ سَوْدَةَ أرَّثوها

وَشَبّوا نارَها لمِنْ اصْطَلاها

فإنّي لستُ خاذِلَكُمْ ولكنْ

سَأسْعى الآنَ إذْ بَلَغَتْ إناها

وتشير هذه الأبيات إلى علاقة عنترة بالحرب، وهي علاقة اوجبتها ضرورة التواصل مع القبيلة التي تبدو راغبة فيها على الرغم من إعلان رفضه لها، وتوكيد براءته منها بغية إثبات ذاته، وتوكيد انتمائه للقبيلة وقد أشار الدكتور جاسم الدليمي إلى (أن الشاعر ملتزم بقضايا الجماعة / القبيلة ونظامها ومصالحها لكي يحقق تميزاً فردياً داخل هذا النظام بوساطة تفوقه أخلاقياً أو بطولياً بما يسمح له بالتعبير عن تحرره بدرجة أكبر، وفي هذا المظهر يؤدي الشاعر حقوق الانتماء للقبيلة مع إيجاد فرصة للتعبير عن حريته على نحو لا يضر بمصالحها) [٣٨]

وأبرزت نونية عنترة التي قالها في رثاء مالك بن زهير العبسي الذي قتل في حرب داحس والغبراء موقفه الرافض للحرب والمندد بها وبدوافعها كما يتضح ذلك في هذه الأبيات [٣٩]

لِلّهِ عَيناَ مَنْ رأى مِثْلَ مَالِكٍ

عَقِيرةَ قَومٍ أنْ جَرى فَرسانِ

فَلَيْتَهُما لَمْ يَجْرِيا يا نِصْفَ غَلْوَةٍ

وَلَيْتَهُما لَمْ يُرْسَلا لِرِهانِ

وَلَيْتَهُما ماتا جميعاَ بِبَلْدَةٍ

وَأخْطَاهُما قَيْسُ فَلا يُرَيانِ

لَقَدْ جَلَبا حَيْناَ وَحَرْباَ عَظِيمَةً

تُبيدُ سَراةَ القَوْمِ مِنْ غَطَفَانِ

وَكانَ لدى الَهَيْجاءِ يَحْمِي ذِمارَها

ويطعنُ عِنْدَ الكرَّ كُلَّ طعان

واستطاع عنترة عبر فروسيته المتألقة ومروءته النادرة أن يسمو بنفسه عن كل الدنايا والصغائر ليحتل مكاناً يليق بكبريائه وفروسيته فهو عندما يحارب، يحارب دفاعاً عن القبيلة/ الجماعة رغبة في

[38]- الحرية في الشعر العربي قبل الإسلام: ٣٧ وما بعدها.

[39]- ديوانه: ٣١١.

ISSN-1994-697X

مجدها، وليس طمعاَ بالنهب والسلب والحصول على المغانم كما يفعل الآخرون ليؤكد سمة من سمات السادة الأحرار.

ومن هنا حاول عنترة اضفاء هذه القيمة على ذاته وابرازها في كثير من نصوصه الشعرية مثل قوله:[٤٠]

هَلاّ سألتِ الخيلَ يابْنَةَ مالكٍ

إنْ كُنْتِ جاهِلَةً بما لَمْ تَعْلَمِي

يُخْبِرْكِ مَنْ شَهِدَ الوَقِعَةَ أنّني

أغْشَى الوَغَى وَأعِفَّ عِنْدَ المَغْنَمِ

وقوله: [٤١]

وَسَلِي لِكَيْماَ تُخْبَرِي بِفَعالِنا

عِنْدَ الوَغى وَمواقِفِ الأَهْوالِ

ونجد عنترة بن شداد مندفعاً لتقديس البطولة مسخراً كل قدراته من أجل الدفاع عن القبيلة لغرض إثبات وجوده الفاعل فيها، ولكي ينتزع اعترافها به بوصفه فارساً من فرسانها الذي لا يمكن تجاوزه أو تهميشه فنراه يقول: [٤٢]

والخيلُ تعلمُ والفوارِسُ أنّني

فَرَّقَتُ جَمْعُهمُ بِطَعْنَةِ فَيْصَلِ

ويقول: [٤٣]

وقد عَلِمَتْ بنوعبس بأني

أهشُّ إذا دُعيتُ إلى الطعانِ

وأن الموتَ طَوْعُ يَدي إذا ما

وصلتُ بنانها بالهنذُواني

40- ديوانه: ٢٠٧.

41- المصدر نفسه: ٣٣٦.

42- المصدر نفسه: ٢٥٠.

43- المصدر نفسه: ٢٩٦.

ISSN-1994-697X

ويعمد عنترة إلى إبراز بطولته من خلال حديثه عن مصير الأبطال، ونهاية كل من يواجهه طعاماً للسباع والطيور كما يبدو ذلك واضحاً في توعده لابني ضمضم فنراه يقول [٤٤]

إنْ يَفعلاَ فَلَقَدْ تَرَكْتُ أباهُما

جَزْرَ السِّبَاعِ وَكُلِّ نَسْرٍ قَشْعَمِ

وكذلك فعل في قوله: [٤٥]

وَتَرَكْتُهُ جَزَرَ السَّباعِ يَنُشْنَهُ

ما بَيْنَ قُلّةِ رَأسِهِ والمِعصَمِ

وأشار الدكتور عمر الطالب إلى (أن فخر عنترة بتفوقه على هذه النماذج لم يكن القصد منه التغني بمشاهد القتل بل كان عنترة يهدف إلى ابراز شجاعته أمام قبيلته فيرمي إلى البرهنة وإقامة الدليل على خطأ ما يعتقدونه حول قدر الإنسان الحقيقي ومنزلته الفعلية في المجتمع القبلي)[٤٦]

وربط عنترة تفوقه البطولي بوفائه لقبيلة عبس، معلناً التزامه بحمايتها والدفاع عنها، ومواجهة اعدائها، وكثيراً ما كان يلجأ إلى تصوير المعارك التي خاضها في سبيلها، وتحمله لاعبائها الثقيلة، هذه الأعباء التي اتعبت حتى فرسه الذي بدأ شاكياً من قسوتها، ولم يعد بمقدوره احتمال خوضها كما جاء في قولهِ: [٤٧]

فَأزْوَرَّ مِنْ وَقْعِ القَنا بِلَبَانِهِ

وَشَكا إليَّ بِعَبْرَةٍ وَتَحَمْحُمِ

لَوْ كانَ يَدْرِي ما المُحاوَرةُ اشْتَكَى

ولَكانَ لو عَلِمَ الكَلامَ مُكَلّمي

44– ديوانه: ٢٢٢.

45– المصدر نفسه: ٢١٠.

46– القلق والاغتراب في الشعر العربي قبل الإسلام: ٦١.

47– ديوانه: ٢١٧.

ISSN-1994-697X

واستطاع عنترة أن يثبت تفوقه في ميدان الحرب والفروسية حتى أصبح الفارس والبطل الذي يدعى عند احتدام المعارك، وينادى باسمه عند حدوث الملمات ليحمي قبيلته التي لم تعد تخفي حاجتها إليه، وفي ذلك توكيد لذاته، واعتراف بأهميته على الصعيد القبلي كما يتضح من قوله: [٤٨]

لمّا رَأيْتُ القَوْمَ أقْبَلَ جَمْعُهُمْ

يَتَذَامَرونَ كَرَرْتُ غَيْرَ مُذَمَّمِ

يَدْعُونَ عَنْتَرَ والرَّماحُ كَأنّها

أشطانُ بِئْرٍ في لَبانِ الأدْهَمِ

وَلَقَدْ شَفَى نَفْسِي وأبْرَأ سُقْمَها

قِيلُ الفَوارسُ وَيْكَ عَنْتَرَ أقَدِّمِ

ولم يكتف عنترة بذلك، وإنما عمد إلى تمجيد بطولات عبس وفرسانها في مواجهة أعدائها قائلاً:[٤٩]

وَنِعْمَ فَوَارِس الهَيْجاءِ قَوْمِي

إذا علق الأعِنّةَ بالبنانِ

هُم قتلوا لقيطاً وابنَ حُجرٍ

وَأرْدَوا حاجباً وابْنِي أبانِ

وأكثر عنترة من الافتخار بقبيلته التي رسم لها صورة مثالية جمع فيها كل القيم العربية الأصيلة التي كانت موضع اعتزاز العرب في ذلك الوقت فهو القائل [٥٠]

مَنْ مِثْلُ قومي حين تَخْتَلِفُ القَنا

وَإذ تَزولُ مَقادِمُ الأبطالِ

فَفِدىً لِقَوْمِي عِنْدَ كُلَّ عَظِيمةٍ

نَفْسِي وَرَاحِلَتي وسائرُ مالي

قَوْمِي الصّمامُ لِمَنْ أرادوا ضَيْمَهُمْ

والقاهِرونَ لكُلَّ أغْلَبَ خالي

48- ديوانه: ٢١٦ وما بعدها.

49- المصدر نفسه: ٢٩٧ وانظر كذلك : ٣٠٠، ٣٣٧.

50- المصدر نفسه: ٣٣٧.

ISSN-1994-697X

والمطعمونَ وما عَلَيْهِمْ نِعْمَةٌ

وَالأكْرَمُونَ أباً وَمَحْتِدَ خَالِ

وفيها يقول أيضاً [٥١]

وإذا الأُمورُ تَحَوَّلَت أَلْفَيْتَهُمْ

عِصَمَ الهوالِكِ ساعَةَ الزَّلزالِ

وَهُمُ الحُماةُ إذا النَّساءُ تَحسَّرَتْ

يَوْمَ الحِفاظِ وَكانَ يَومَ نِزالِ

يُقْصونَ ذاَ الأَنْفِ الحَمِيَّ وَفِيهُمُ

حِلْمُ وَلَيْسَ حَرامُهُمْ بِحلالِ

المُطْعِمونَ إذا السَّنونَ تَتَابَعَتْ

مَحْلاً وَضَنَّ سَحابُها بِسِجالِ

وكذلك فعل في قوله: [٥٢]

تَدَاعَى بنو عَبْسٍ بِكُلِّ مُهَنَّدٍ

حُسامٍ يُزيلُ الهامَ والصَّفُّ جانِحُ

وكلّ رُدَيْنِيَّ كَأَنَّ سِنانَهُ

شِهابٌ بدا في ظُلْمَةِ اللّيلِ وَاضِحُ

وهكذا نلاحظ أن صوت عنترة يعلو في اضفاء القيم الأخلاقية النبيلة كالشجاعة والحلم والكرم والانصاف والعدل وغيرها من القيم على أبناء قبيلته ممجداً بطولات عبس وفرسانها في مواجهة الأعداء حيث يقول:[٥٣]

وإنّا نَقودُ الخَيْلَ تحكي رؤوسُها

رؤوسُ نِساءٍ لا يَجِدْنَ فَوالِيا

فما وَجدُونا بالفَرُوق أشابةً

ولا كشفاً ولا دعُينا مواليا

ولم يكتف عنترة بذلك، وإنما سخر موهبته الشعرية سلاحاً في مواجهة أعداء قبيلته أيضاً كما يتضح ذلك في تهديده، وتوعده لبني العشراء الذين عدوا على قراوش بني هنيّ فقتلوه قائلاً:[٥٤]

51- ديوانه: ٣٣٨.

52- المصدر نفسه: ٣٠١ وما بعدها.

53- المصدر نفسه: ٢٢٧.

54- ديوانه: ٢٨١.

سَيأتيكُمُ عنّي وإنْ كُنْتُ نائياً

دُخانُ العَلَنْدي دونَ بَيْتِي مِذودُ

قَصَائدُ مِنْ قِيلِ امْرىءٍ يَحْتَديكُمُ

بني العُشراءِ فارْتَدُوا وَ تَقَلّدوا

وكثيراً ما كان عنترة يستذكر بطولاته، ويتغنى بفروسيته ويستنطق القيم العربية الأصلية التي وجد فيها الوسيلة لاستعادة توازنه النفسي من جراء ظلم المجتمع له بسبب سواد لونه فنراه يكثر من الحديث عن نفسه التي نحلتها الحروب ورققت جسمه المعارك لأنه عاش حياته عرضة لأطراف الرماح كما جاء ذلك في قوله:[٥٥]

إمَّا تَرَيْني قد نَحَلْتُ ومنْ يَكُنْ

غَرضاً لأطْرافِ الأسِنّةِ يَنْحَلِ

فَلَرُبَّ أبْلَجَ مَثلِ بَعْلِكِ بادِنٍ

ضَخْمٍ على ظَهرِ الجَوادِ مُهَيَّلِ

غَادَرْتُهُ مُتَعَفّراً أوْصَالُهُ

والقَومُ بينَ مُجَرّحٍ وَمُجَدّلِ

فِيهِمْ أخو ثِقَةٍ يُضارِبُ نازِلاً

بالمَشْرَفيَّ وفَارِسٌ لم يَنْزِلِ

ويبرز إيثار عنترة عندما يجعل من نفسه حاجزاً بين أصحابه وبين الأسنة فهو لا يجبن ولا يتأخر عن تلبية النداء في أحلك الظروف كما صرح بذلك في قوله: [٥٦]

فِي حَوْمَةِ المَوْتِ الَّتِي لا تَشْتَكِي

غَمَراتِها الأَبْطالُ غَيْرَ تَغَمْغُمِ

إذْ يَتَّقونَ بِيَ الأَسِنَّةَ لَمْ أخِمْ

عَنْها ولكنِّي تَضايَقَ مُقْدَمِي

واستطاع عنترة أن يبز اقرانه من السادة الأحرار عند ما أثبت تفوقه في ميدان البطولة والفروسية، وأن هذا التفوق جعله يتحول من حياة الذل والعبودية إلى حياة العز والحرية حتى غدا سيداً وقائداً لفرسان قبيلته كما يتضح ذلك في كثير من نماذجه الشعرية مثل قوله: [٥٧]

[55]- المصدر نفسه: ٢٥٦ وما بعدها.

[56]- المصدر نفسه: ٢١٥.

ISSN-1994-697X

نَادْيتُ عَبْساً فاستجابوا بالقَنا

وبكلِّ أبيضَ صارمٍ لم يَنْجَلِ

حتى أستباحوا آلَ عَوْفٍ عُنْوَةً

بالمَشْرَفِيَّ وبالوشيجِ الذَبَّلِ

وقوله: [٥٨]

وَصَحابةٍ شُمَّ الأنوفِ بَعَثْتُهُمْ

لَيْلاً وقد مالَ الكَرى بِطَلَاها

وَسَرَيْتُ في وَعَثِ الظّلامِ أقودُهُم

حتى رأيتُ الشّمْسَ زَالَ ضُحاها

ولعل الشعور بالذات وتعاليها عند عنترة لم يكن إلا سلوكاً تعويضياً عن عزلته، وانهدام أحلامه في أن يعيش حراً منتصراً لقيمه الجديدة المناهضة لقيم القبيلة السلبية لذا كان لا يتوانى من إبراز آثره في الدفاع عن القبيلة التي لولا دفاعه عنها لما بلغت تلك الدرجة من السمو والتقدير الذي بلغته بسبب كفاحه، ومدافعته عنها.

ولم تكن فروسية عنترة وسيلة للتغلب على مشكلته الاجتماعية المتعلقة بأزمة انتمائه للقبيلة فحسب، وإنما كانت وسيلته في مواجهة مشكلاته الوجودية المرتبطة بواقع مجتمعه أيضاً.

ويبدو ذلك واضحاً من خلال رؤية عنترة الخاصة للموت والحياة، إذ أن إيمان عنترة بحتمية الموت ساعده على التمسك بالبطولة والفروسية التي غدت وسيلة خلاص من الواقع المأساوي الذي يعيش فيه يقول ادونيس: (لهذا الواقع طابع فاجع عند الجاهلي، لأنه في بحثه عن المخارج لم يكن تحركه فاعلية دينية نحو تعالٍ إلهي يخلص له فهو عالق بالأرض يبحث من خلال وثنية عن تعال من نوع آخر، اسميه التعالي الأرضي ليس له غير الأرض يخلص لها ويخضع لإيقاعها، والإخلاص للأرض دخول في العمل والحركة، فهو فروسية وبطولة من جهة، وهو من جهة ثانية يفترض الاتجاه إلى الخارج لفهمه والسيطرة عليه): [٥٩]

ومما يؤكد ذلك بروز إيمان عنترة وقناعته بحتمية الموت ووقوعه، فالموت آت لا مرد له لهذا لم يكن عنترة خائفاً منه، ملتزماً بالكفاح واقتحام المكاره والأهوال للوصول إلى غاياته النبيلة والدفاع عنها فنراه يقول: [٦٠]

57- ديوانه: ٢٤٨.

58- المصدر نفسه: ٣٠٥ وما بعدها.

59- مقدمة للشعر العربي: ١٤ وما بعدها.

60- ديوانه: ٢٦٤.

وَعَرَفْتُ أنَّ مَنِيَّتِي إنْ تَأتِني

لا يُنجِني منها الفِرارُ الأسْرَعُ

فَصَبَرْتُ عارِفةً لذلكَ حُرَّة

تَرْسو إذا نَفْسُ الجَبانِ تَطَلّعُ

ولعل إيمان عنترة بحتمية الموت ساعده على التمسك بخيار الفروسية والبطولة كوسيلة للخلاص من ذل العبودية والاضطهاد، وهذا ما جعله يخاطر بنفسه دفاعاً عن حريته وعن حقه في أن يتمتع بحياة تليق به.

ومن هنا أصبح الموت في نظر عنترة أجمل من حياة يعيش فيها الإنسان ذليلاً مضطهداً كما يتضح ذلك في قوله: [٦١]

بَكَرتْ تُخَوَّفُني الحُتوفَ كأنّني

أصبَحْتُ عن غَرَضِ الحُتوفِ بِمعْزِلِ

فأجَبْتُها إنَّ المَنِيَّةَ مَنْهَلٌ

لابُدَّ أنْ أسْقى بكأسِ المَنْهَلِ

فَاقْنَيْ حَيَاءَكِ لا أبالَكِ، واعْلَمِي

أنّي امْرُؤٌ سأمُوتُ إنْ لَمْ أقْتَلِ

وَلَقَدْ أبِيتُ على الطّوى وَأظَلّهُ

حتى أنالَ به كريمَ المأكلِ

وكذلك فعل في قوله: [٦٢]

وللموت خيرٌ للفتى من حياتهِ

إذاَ لَمْ يثبت للأمرِ الا بقائدِ

فعالجْ جُسيماتِ الأمورِ ولا تَكُنْ

[61] – المصدر نفسه: ٢٥١ وما بعدها.

[62] – ديوانه: ٣٣٤.

هبيتَ الفؤادِ همُّهُ للوسائدِ

ومن هنا يبدو لنا (أن اختيار الموت قتلاً يرتبط بقيم البطولة التي يعتد بها الشاعر ولا يتنازل عنها في أعنف الظروف أو المواجهات مع الآخر: وهو يعني لديه الحد الفاصل بين البطولة (مظهر الحرية) وبين الجبن (مظهر العبودية) ؛ بين أن يحقق الشاعر حرية الاختيار ـ اختيار الموت ـ وبين أن يبقى خاضعاً لإرادة الموت تتصرف فيه حين تشاء) [٦٣]

وهكذا تبدو لنا رؤية عنترة وموقفه من الحياة والموت فقد رأى أن الاندفاع في الحرب، وعدم المبالاة بالموت هو البديل الحقيقي للواقع المأساوي الذي يعيش تحت وطأته، وهو الذي سيحقق له حلمه في أن يعيش حراً كريماً أو هو بعبارة أخرى كان يتخذ من حتمية الموت وسيلة للخلاص من حياة الذل ومحاولة الارتقاء عن كل ما يوهم الوجود الإنساني بالقبح، يقول عنترة: [٦٤]

تعالَوْا إلى ما تَعْلَمونَ فإنّني

أرى الَدَّهْرَ لا يُنْجِي مِنَ الموْتِ ناجيا

وإذا أمعنا النظر في شعر عنترة سنجده يأسرنا بمثله الخلقية الرفيعة فهو مع فروسيته وبذله لنفسه في سبيل قومه، سمح السجايا، سهل المخالطة والمعاشرة لا يبغي على غيره، ولا يحتمل البغي ولا يظلم، ولكنه لا يستكين للظلم، فإن ظُلِمَ تحول كالإعصار العاصف حتى يأتي على ظالمه. ومن سمات الفروسية قديماً شرب الخمر وهو يعلن ذلك ولكن الخمر لا تفسد مروءته وإذا دعاه داعي المكرمات استجاب باذلاً كل ما يملك عن طيب نفس يقول ـ في معلقته ـ مخاطباً ابنة عمه عبلة التي أحبها حباً عظيماَ: [٦٥]

أثْني عليَّ بما عَلِمْتِ فإنّني

سَمْحٌ مُخَالَطَتي إذا لَمْ أظْلَمِ

وإذا ظَلِمْتُ فإنَّ ظَلْمِيَ باسِلُ

مُرٌّ مَذاقَتُهُ كَطَعْمِ العَلْقَمِ

فإذا شربتُ فإنني مُسْتهلِكُ

مالي، وعِرْضي وافرٌ لَمْ يُكْلَمِ

وإذا صَحَوْتُ فما أقصَّرُ عن نَدَى

وَكَمَا عَلِمْتِ شمائِلي وَتَكَرُّمِي

63 – ملامح الروح القتالية في شعر عنترة: د. جليل رشيد فالح: ٣ وانظر الشعر العربي قبل الإسلام قراءة ورؤية: ١١٤.

64 – ديوانه: ٢٢٧.

65 – المصدر نفسه: ٢٠٥.

وكذلك فعل في قوله: [٦٦]

إني امرؤُ مني السماحةُ والندى

والبأسُ أخلاقُ أصبتُ لبابها

وأنا الربيعُ لمن يحلُ بِسَاحَتِي

أسَدُ إذا ما الحَرْبُ أبدتْ نابَها

وإذا لقيتُ كتيبةً طاعنتها

وسلبتها يومَ اللقاءِ عُقابَها

وتكاملت فروسية عنترة، فلم تعد فروسية حربية فحسب، وإنما أصبحت فروسية خلقية سامية فيها الحب الطاهر العفيف الذي يجعل من المحبوبة مثلاً أعلى يرتفع فيه صاحبه عن الغايات الجسدية (الحسية) إلى غايات روحية تنم عن صفاء النفس ونقاء القلب، وفيها التسامي عن الدنايا والنقائص الذي يملأ النفوس بالأنفة والإباء والعزة والكرامة والحس المرهف والشعور الدقيق[٦٧] وقد تمثل في إخلاصه لمحبوبته (عبلة) التي تحمل من اجلها الكثير، مؤكداً إصراره على التمسك بها، والحرص على كسب مودتها ورضاها قائلاً:[٦٨]

وَلَئِنْ سَألْتَ بِذاكَ عَبْلَةَ خَبَّرَتْ

أنْ لا أرِيدُ مِنَ النّساءِ سِواهَا

وكانت عبلة حافزاً على التفوق في الميدان البطولي فضلاً عن الميدان الأخلاقي لذلك كان عنترة يلجأ إلى اظهار بطولته وبطشه بالأعداء رغبة منه في تغطية مظاهر الضعة التي رافقته من جراء سواد لونه، وضعف نسبه من جهة الأم فنراه يقول: [٦٩]

ولقد ذكرتُك والرماحُ نواهلُ

منّي وبيضُ الهندِ تقطرُ من دَمِي

فوددتُ تقبيلَ السيوفِ لإنها

لَمَعَتْ كبارقِ ثَغْرُكِ المتبسّمِ

66- ديوانه: ٣٤٠.

67- العصر الجاهلي: ٣٧٤.

68- ديوانه: ٣٠٨.

69- إشعار الشعراء الستة الجاهليين: للأعلم الشنتمري: ١٢٩/٢

ISSN-1994-697X

وهكذا يصبح الحب ـ عند عنترة دافعاً لاقتحام المكاره والأهوال ليمحو بفعاله هذه سواد لونه، ويبلغ من المجد منزلة تؤهله للإقتران بمحبوبته (عبلة) كما أشار الى ذلك الأستاذ بطرس البستاني [٧٠]

وأكد ذلك المرحوم الدكتور نوري حمودي القيسي بقوله: (إن حبه لعبلة دفعه إلى خوض الحروب، ومن أجله دافع عن قومه، وحمى حماهم، ومن اجل عبلة أيضاً طلب الحرية بكل الوسائل ليتساوى مع من أحب، فبدأ لنا شاعر المعارك من ناحية، وشاعر الحب الذبيح والغزل الحزين من ناحية أخرى) [٧١]، كيف لا وقد احتلت عبلة نفسه ونزلت فيها منزلة المحب المكرم يقول عنترة: [٧٢]

ولَقَدْ نَزَلْتِ فلا تَظُنّي غَيْرَهُ

مني بمنزلةِ المُحَبَّ المُكْرَمِ

ولم يعد غريباً بعد ذلك أن نرى عنترة يربط البطولة والفروسية بقضية الحب، وغالباً ما كان يدعو محبوبته للسؤال عن بطولاته وخوارق أعماله لغرض إثبات ذاته، وتوكيد جدارته للفوز برضاها فنراه يقول:[٧٣]

هَلاّ سألْتِ ابْنَةَ العَبْسِي ماحَسَبِي

عِنْدَ الطّعانِ إذا ما آحَمَّرتِ الحَدَقُ

وَجَالَتِ الخَيْلُ بالأبْطالِ عابسَةً

شُعْثُ النّواصِيَ عَلَيْها البِيضُ تأتَلِقُ

ونلاحظ أن عنترة بن شداد جعل من عدة الفارس شاهداً ودليلاً على بطولة الفارس ليقنع محبوبته (عبلة)، وليعوض بفروسيته سواد لونه وقد مارست الخيل في شعره دور الشاهد على فروسيته وبطولته كما يتضح ذلك في قوله: [٧٤]

سَلَوا جَوادي عَنِي يومَ يحملَني

هَلْ فاتني بَطَلُ أو حُلتُ عن بطلِ

ويكرر عنترة هذه المعاني في شعره محاولاً غزو قلب المحبوبة ليعوض بهذه البطولات ما فقد من جمال اللون، وضعة النسب من قبل أمه (زبيبة) ولتكون تلك المعاني مفخرته التي يفتخر بها، ومجده الذي يعتد به حتى أصبحت (عبلة) سبيله إلى معاني البطولة والفروسية يقول: [٧٥]

---

70 – الشعر الجاهلي: بطرس البستاني: ٧٨.

71 – الفروسية في الشعر الجاهلي:

72 – ديوانه: ١٨٧.

73 – المصدر نفسه: ٣٣٧.

74 – ديوانه: ٣٣٧.

75 – المصدر نفسه: ٢٠٧ وما بعدها وانظر كذلك: ٢٢٠– ٢٢٨،٢٥٣وما بعدها، ٣٣٦.

ISSN-1994-697X

هَلاّ سألتِ الخيلَ يابنةَ مَالِكٍ

إنْ كُنْتِ جاهِلَةً بما لَمْ تَعْلَمِي

إذْ لا أزالُ على رِحالةِ سابِحٍ

نَهْدٍ تعاوَرُهُ الكُماةُ مُكْلَمِ

طوراً يُجرّدُ للطّعانِ وتارةً

يأوي إلى حصدِ القسّي عَرَمْرمِ

يُخْبِرْكِ مَنْ شَهِدَ الوقيعةَ أنّني

أغْشَى الوَغَى وَأعِفُّ عِنْدَ المَغْنَمِ

ويقول: [٧٦]

ياعَبلُ كم من غمَرةٍ زُهاءَها

بالنَّفسِ ما كادَتْ لَعَمرُكِ تَنْجلي

فيها لوامِعُ لَوْ شَهِدَتِ زُهاءَها

لَسَلَوْت بَعدَ تَخَضُّبٍ وَتَكَحُّلِ

إمَّا تَرَيْني قَدْ نَحَلْتُ ومنْ يَكُنْ

غَرّضاً لأَ طْرافِ الأَسِنَّةِ يَنْحَلِ

ومن هذا المنطلق يجعل عنترة من كرم الفعال، والذود عن القبيلة ما يُغنيه عن أخواله، ويجعله أشرف بكثير من أولئك الذين يفتخرون بأنسابهم بدلاً من أفعالهم فنراه في الفخر يلجأ إلى تعويض عبودية أمه بشجاعته وكرم نفسه وسيفه حريصاً على تأكيد إخلاصه لذاته، محاولاً إيجاد معادلة متوازنة بين طموحه الذاتي، والوجود المحيط به عبر استغلاله لكل إمكانياته البدنية والنفسية والعقلية ولاسيما استغلاله لعناصر البطولة والفروسية في مواجهة الواقع، وإزالة الظلم، وتحقيق أمله المنشود في تحقيق ذاته، وانتزاع حريته لكي يعيش مثلما يعيش الآخرون.

ولم تكن فروسية عنترة قيمة مجردة، ولكنها أرتبطت بايمانه وقدرته على التضحية من أجل قضيته العليا، والتفاني من أجل إعلاء كلمة الحق والعدل والمساواة، وقهر الشر، وحماية المقهورين والمهمشين من ابناء جنسه.

ومن المفيد الإشارة إلى أن اهتمام عنترة لم يقف عند حدود التزامه بالفروسية الحقة بل يتعدى إلى ابعد من ذلك من خلال ربط شخصيته بقيم المجتمع الأخلاقية التي تتمتع بقدر كبير من الإحترام في ذلك المجتمع، وهو في كل ذلك يحاول إقناع قبيلته بضرورة التخلي عن موقفها السلبي إتجاهه، وتغيير سلوكها بما ينسجم مع هذه القيم التي التزم بها عنترة قولاً وعملاً بعد أن ادرك انسجامها مع طموحه

[76] – المصدر نفسه: ٢٥٥.

ورؤيته للحياة والإنسان مؤكداً من خلالها دعوته في أن قيمة الإنسان ينبغي أن تكون على أساسها لا على أساس الجنس أو اللون أو النسب كما هو متعارف عليه في المجتمع القبلي الجاهلي آنذاك.

وأبرز عنترة ممارسته للفعل الأخلاقي النبيل ليسمو من خلاله على واقعه، وليعوض بواسطته عن سواد لونه وموقف الجماعة منه فنراه يقول [٧٧]

وَلَقَدْ أَبِيتُ على الطّوى وَأَظَلَّهُ

حتى أنالَ به كريمَ المأكَلِ

وعمد عنترة إلى وصف نفسه بالسماحة، وانه أمرؤ ماجد حسن الخلق قائلاً [٧٨]

إِنّي امْرُؤٌ سَمْحُ الخَلِيقَةِ ماجِدٌ

لا أَتْبِعُ النّفْسَ اللّجوجَ هَواهَا

والمتأمل في شعر عنترة يدرك بوضوح سعيه الجاد في تجسيد أبعاد تجربته، ويعكس أمله في الخلاص من هذا الواقع الردئ، وشوقه إلى عالم أجمل يسوده العدل والمحبة والمساواة، وتوكيد وضع إنساني أرفع يقاس المرء فيه بمزاياه وأفعاله لا بجنسه، أو بلونه .

ومن هنا كان من الطبيعي أن يقوم شعر عنترة على تمجيد الذات وابراز البطولة، والتغني بالفضائل الاجتماعية المثلى، والإعراض عن المكاسب، والترفع عن الصغائر، والانصراف والسعي في طلب العز والمجد مؤكداً أن لا خلاص من واقعه المأساوي الا عن طريق النزوع إلى التفوق في الميدان الأخلاقي مثلما اثبت تفوقه في ميدان الفروسية والبطولة.

ولعل إصرار عنترة على ممارسة الفعل الأخلاقي يجعله يحس بأنه أصبح خارج إطار العبودية، وبهذا يحقق عنترة حلمه في إثبات ذاته ووجوده، وانتزاع حريته وتحقيق حلمه في أن يعيش حياة حرة كريمة كما يعيشها السادة الاحرار.

فحاول عنترة ابراز كرمه لأنه كان يدرك قدر الكرم في مجتمعه لان العرب كانت تقول (الجود سؤدد) جاعلاً كرمه سليقة فطر عليها، فهو كريم في صحوه، وكريم في سكره. [٧٩]

وربط عنترة كرمه بعفةِ نفسه، فهو مقدام جرئ عند نزوله حومات الوغى، ولكنه عفيف عند المغنم كما يتضح ذلك في قوله: [٨٠]

يُخْبِرْكِ مَنْ شهِدَ الوقيعةَ أَنَّني

أَغْشَى الوَغَى، وَأَعِفُّ عِنْدَ المَغْنَمِ

77 – ديوانه: ٢٤٩.

78 – نفسه: ٣٠٨.

79 – ديوانه: ٢٠٦، ٣٤٠.

80 – المصدر نفسه: ٢٠٩.

ISSN-1994-697X

ويتجلى سموه الأخلاقي في عفته وسماحة خلقه التي تتبدى في قوله: [٨١]

أغْشَى فتاةَ الحيَّ عِنْدَ حَليلِها

وإذا غَزا في الجَيْشِ لا أغْشاها

وَأغُضُّ طَرْفِي ما بَدَتْ لي جارَتي

حَتّى يُوارِي جَارَتي مأواها

ويستطيع القارئ أن يكشف عن سمو اخلاق الشاعر عنترة في كثير من المواقف لا سيما في علاقته مع الأخرين، فجاءت أفعاله ترجمة لاخلاقه كما يتضح ذلك في نصرته للضعيف والمحتاج كما يقول: [٨٢]

وَمَكّروبٍ كَشَفْتُ الكَرْبَ عنهُ

بضربةٍ فَيْصَلٍ لمَّا دَعاني

دَعاني دَعْوَةً والخَيْلُ تجري

فَما أدْري أبِاسْمي أمْ كَنّاني

فَلَمْ أمْسِكْ بِسَمْعي إذْ دَعَانِي

وَلكِنْ قَدْ أبانَ لَهُ لِساني

فكانَ إجابَتي إيَّاهُ أني

عَطَفْتُ عليه خَوّارَ العِنانِ

وتتبدى نخوة عنترة ومروءته في الدفاع عن شرف القبيلة متمثلاً في الدفاع عن نسائها فهو لا يقبل أن تصاب هذه النساء بسوء، وأن تتعرض للمهانة كما يبدو ذلك واضحاً في قوله: [٨٣]

ونحنُ مَنَعْنَا بالفَروقِ نساءَنا

نُطَرَّفُ عنها مُشْعِلاتٍ غَواشِيا

أبَيْنَا أبَيْنَا أنْ تَضِبَّ لِثاتُكُمْ

على مُرشِفاتٍ كالظّباءِ عواطِيا

81 – المصدر نفسه: ٣٠٨.

82 – ديوانه: ٢٩٤.

83 – المصدر نفسه: ٢٢٤ وما بعدها.

ISSN-1994-697X

وقوله: [٨٤]

وَنَحْفَظُ عَوْراتِ النّساءِ وَنَتّـَّقِي

عَلَيْهِنَّ أنْ يلْقَيْنَ يَوْماً مَخازِيا

وتجاوزت نخوته نساء قبيلته، فبدا مندفعاً لحماية النساء من غير قبيلته كما يتضح ذلك في قوله:[٨٥]

ومُغيرَةٍ شَعواءَ ذاتِ أشِلّـَّـَةٍ

فيها الفَوارِسُ حَاسِرٌ ومُقَنّعُ

فَزَجرتُها عن نِسْوةٍ من عامِرٍ

أفْخاذُهُنَّ كَأنّهُنَّ الخِرْوعُ

وهكذا يتضح لنا أن عنترة بن شداد حاول أن يجعل من فروسيته ضرباً من التسامي والإحساس بالمروءة الكاملة على حد قول د. شوقي ضيف [٨٦]، من خلال ربط هذه الفروسية بمجموعة من الخصال الحميدة والمواقف النبيلة التي جعلت من شخصيته شخصية متميزة أثارت إعجاب الناس منذ العصر الجاهلي حتى يومنا هذا.

الخاتمة

وفي نهاية المطاف ينبغي علينا رصد ابرز النتائج التي انتهت إليها هذه الدراسة ولعل من أبرزها الآتي:

(١) أبرزت الدراسة معاناة الشاعر عنترة بن شداد من جراء أزمة الانتماء التي تمثلت في رفض المجتمع له بسبب سواد لونه، وتواضع نسبه من جهة الأم، وبسبب مقاييس العبودية في ذلك العصر على الرغم من كل ما يتمتع به من مزايا تؤهله ليكون سيداً من سادات قبيلته أن لم يكن من سادات العرب.
(٢) رفض عنترة في أن يعيش ذليلاً مقهوراً، ورفض القيم السلبية التي تحاول أن تكبل إرادته وتسلب حريته، ومن هنا التزم بالفروسية ولجأ إلى استنهاض قيم البطولة لمواجهة الواقع، ومواجهة الاحباط والشعور بالنقص والاستلاب الذي أملاه المجتمع عليه، وقد أسهمت فروسيته في تقرير وجوده واثبات ذاته من دائرة العبودية إلى دائرة الحرية.
(٣) كشفت الدراسة عن تعاظم معاناة عنترة / التجربة فتحولت إلى تجربة إنسانية داعية إلى ضرورة التغيير والثورة على المفاهيم القبلية الضيقة، ومواجهة الواقع بصراحة وجرأة ومحاربة الاستلاب الروحي والإنساني له ولمئات المهمشين من أمثاله.

84 – المصدر نفسه: ٣٤٠.

85 – ديوانه: ٢٦٤.

86 – العصر الجاهلي: ٣٧٣.

(٤) أبرزت الدراسة محاولة عنترة في تعزيز الفعل البطولي بالفعل الأخلاقي والإنساني الذي يليق به، فالقيمة الأخلاقية لا تقل أهمية عن الفعل البطولي لديه على الرغم من معاكسة الظروف والبيئة والنسب والفقر له، فرد على ذلك كله بهذا السلوك الإنساني ومن ثم الشعري الذي جاء غاية في الرهافة والحدة والتوتر.

المصادر والمراجع

١. أشعار الشعراء الستة الجاهليين ـ اختيار العلامة يوسف بن سليمان بن عيسى المعروف بالأعلم الشنتمري ـ منشورات دار الأفاق الجديدة ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٨١م.
٢. الأغاني ـ لابي فرج الأصفهاني ـ المؤسسة المصرية العامة ـ إعداد مكتب تحقيق دار أحياء التراث العربي ـ طبعة جديدة مصححة ـ دار أحياء التراث العربي ـ بيروت ـ لبنان ـ ط١ ـ ١٩٨٦م.
٣. جمهرة أشعار العرب ـ لابي زيد القرشي ـ حققه وعلق عليه وزاد في شرحه د. محمد علي الهاشمي ـ مطابع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية ـ لجنة البحوث والتأليف والترجمة والنشر (٦) ـ ط١ ـ ١٩٧٩م.
٤. الحرية في الشعر العربي قبل الإسلام ـ د. جاسم محمد صالح الدليمي ـ مركز عبادي للدراسات والنشر ـ صنعاء ـ اليمن ـ ط١ ـ ٢٠٠١م.
٥. ديوان عنترة بن شداد ـ تحقيق ودراسة محمد سعيد مولوي ـ المكتب الإسلامي ـ الشركة المتحدة للتوزيع ـ بيروت ـ ط٢ ـ ١٩٧٠م.
٦. شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ـ لإبي بكر محمد بن القاسم الأنباري ـ تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط٢ ـ ١٩٩٦ م.
٧. الشعر الجاهلي ـ بطرس البستاني ـ صدر عن دار المعلم بطرس البستاني ـ مطابع قصر العدل الجديدة ـ١٩٨١م.
٨. الشعر والشعراء ـ لابن قتيبة ـ تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ـ دار المعارف ـ مصر ـ١٩٦٦م.
٩. الشعر العربي قبل الإسلام قراءة ورؤية ـ د. جاسم محمد صالح الدليمي ـ مركز عبادي للدراسات والنشر ـ صنعاء ـ اليمن ـ ط١ ـ ٢٠٠١م.
١٠. طبقات فحول الشعراء ـ لابن سلام الجحمي ـ قرأه وشرحه محمود محمد شاكر ـ مطبعة المدني ـ القاهرة ـ ١٩٧٤م.
١١. العصر الجاهلي ـ د. شوقي ضيف ـ دار المعارف ـ مصر ـ ط٨ ـ ١٩٧٧م.
١٢. الفروسية في الشعر الجاهلي ـ د. نوري حمودي القيسي ـ منشورات مكتبة النهضة ـ طبع دار التضامن ـ بغداد ـ ط١ـ ١٩٦٤م.
١٣. في النقد الجمالي رؤية في الشعر الجاهلي ـ د. احمد محمود خليل ـ دار الفكر المعاصر ـ بيروت ـ لبنان ـ ط١ـ ١٩٩٦م.
١٤. القلق والاغتراب في الشعر العربي قبل الإسلام ـ د. عمر الطالب ـ دار عكاظ ـ المغرب ـ ١٩٨٩ م.
١٥. مقدمة للشعر العربي ـ ادونيس (علي أحمد سعيد) ـ دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ـ بيروت ـ لبنان ـ ط٥ ـ ١٩٨٦م.
١٦. ملامح الروح القتالية في شعر عنترة ـ د. جليل رشيد فالح ـ جريدة الحدباء ع ٤٧-٤٨ ـ العراق ـ١٩٨٠م.

ISSN-1994-697X